

من وصي الصوم :

عشاق الطعام !!

للشيخ محمد رجب السيوي

النهار طويل بمل ، والليظ لافح محرق ، وقد هجم رمضان على الناس بلا هوادة ، نجف الحلو وطوى البطون ، وأخذنا تلس الليل فلانكاد نظفر به لقصر مده ، وسرعة دورته ، وكم امتدت الأيدي إلى عقارب الساعات نسحبها الجير ، ونأهلها المجلة ، فتمضى بطيئة ثقيلة ، وما تم دورتها المحددة حتى نهن المزائم بعد قوة ، وتسلم الأجسام الفتية إلى الضعف والإعياء ولقد بينت في العام الماضي على صفحات الرسالة كيف وقف فريق من الأدباء موقف العداء الصريح من هذا الشهر الكريم فأوسموه مالا طاقة له باحتماله من الظم والقبح ، وأريد اليوم أن أرفقه عن القراء بحديث قوم أحلصوا لبطونهم واسترسلوا مع شهواتهم فهم يتفقدون الطعام في كل زمان ومكان ، حتى إذا اشتموا رائحته سقطوا عليه كالضواري الفاتكة ، وما أجل أن نشيد بذكورهم في هذه الآونة ، لنمتاض عن الطعام بالحديث عن أبطال الأنداز وفرسانه المغاوير .

وإن تك قد منمت لقاء ليلي ففي أخبارها أرج يفوح ونحب أن نعلم أن التفنن في الأكل والشرب ليس مذمة نشين صاحبها ، فقد أباح الله لنا أن نأكل من الطيبات مالد وراق « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » كما حرص عز وجل على أن يسهب في غير موضع من القرآن في وصف ما بلجنة من فاكهة ولحم طير رخو ولبن وعسل . لا يعله جل ذكره من لفة ابن آدم على الطعام ، وتعلمه إليه في شوق وانكباب .

ومحن ترى رجال الصوفية وهم المثل الأعلى في النقش والزهدي لا يتحرجون من الطعام الكثير متى وجدوه ، فقد كان عمر بن الفارض رضي الله عنه بطينا سمينا يأكل ويأكل حتى يلفت إليه الأنظار . وكان إبراهيم بن آدم يتفق معه في مذهبه ، فقد دفع إلى بعض إخوانه دراهم عديدة وقال : خذ لنا بهذه زبداً وخبزاً وعسلاً . فقال يا أبا إسحاق : بهذا كله ؟ فقال إبراهيم

ابن آدم : ويحك ، إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال .

كما روى عن سفيان الثوري قصة عجبية فقد جلس على مائدة مليئة وفوقها حل شهى ، فأخذ يأكل مع أصحابه بهم فقال صاحب المنزل : يا غلام ارفع المائدة إلى الصبيان ، فرفع الحمل إلى داخل البيت . فقام الثوري يمدو خنقه . فقال صاحب المنزل إلى ابن أبي عبد الله : فقال آكل مع الصبيان . فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل ثانية إليه ولقد طالمت في كتب التصوفين اصطلاحات عجبية تدل على كافتهم بالأكل والشرب . فالحل عندهم هو الشهيد بن الشهيد ، والقطائف هي قبور الشهداء ، والفالودج هو خاتمة الخير ، والاوزبج هو أصابع الحور ، وهذا قليل من كثير جداً ذكره الثعالبي في كتاباته ، والأصفهاني في محاضراته فليرجع إليهما من شاء .

وإذن فالسكاف بالطعام ليس بمذموم على إطلاقه ، وإنما لكل شيء نهاية ، فإذا أدى السكاف إلى الهم والشغف ، وذلك ما لا يطاق منه صبر واتقاد . وأذكر أن صحابياً جليلاً - أظنه ابن عباس - دخل عليه سائل منهم فأكل أكلاً عفيفاً ، فجعل ينظر إليه في تعجب ، حتى إذا خرج من عنده قال لخادمه إياك أن تدخله مرة أخرى ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المؤمن يأكل في مع واحد والكافر يأكل في سبعة أمماء . وموجب الطمع على الأسفار الأدبية حين يجدها متخمة بأخبار الكثيرين ممن أطاعوا شهواتهم فجن جنونهم بالطعام ، ينصبون له الحباثل ، ويتصيدونه من مظانه ، بأذنين ما يملكون من جهد في تحقيق رغبات أمماتهم ، السالكين شتى الطرق المباحة والحرمية ، لا بزعمهم وازع من خلق ، ولا يقف أمامهم زاجر من ضمير ، حتى كان من أحدهم أن رفع يده إلى السماء - حين قيل له هذه ليلة مباركة - فقال : اللهم اجعل النخمة دائي وداي عيالي . وسلك نهجه ثمه آخر فقال : اللهم إن أسألك ميتة كهيئة أبي خزيمة ، أكل حلا وشرب معسلاً ونام في الشمس ، فلق الله شيمان ريان دقان ملآن !!

ومن الدهش الغريب أن يجاوز النهم طبقات العامة والدهاء إلى الملوك والخلفاء ، وخاصة رجال العصر الأموي فقد أطلقوا العنان للذاتهم ، ونفذوا الموائد الدسمة لرغباتهم ، وكان كل خليفة ينظر إلى طعام من قبله فيزيد عليه . متفنناً متخيراً ، وكان الطعام قد صار كل شيء في الدولة ، فهو الميدان الأول للتنافس والباهاة !

وقد انتقلت حتى المجتمع والنهم من الخلفاء إلى الأسماء والحكام في هذا العصر الكثره ، فكان عبيد الله بن زياد يأكل قبل غدائه أربع خراذق أسبانية . وكان الحجاج بن يوسف ينسج على منواله ، قال سلم بن قتيبة : عدت للحجاج أربعاً وثمانين لقمة ، في كل لقمة رغيف من خبز ، وفي كل رغيف مله كفه سمك شهى . وكم تندد العرب بهم خالد القسري وعبد الله ابن العميرة الثقفي ، مما يؤكد لنا أن الناس على دين ملوكهم في كل زمان .

ونبدأ بعمالية ، فنذكر أنه كان ذا أبواب حادة ، وأضراس مفترسة ، تأتيه المائدة عملة مقلقة فترجع خاوية خالية . وكانت الوفود تترى عليه من القبائل النائية فتعجب لما تشاهد من طامه وشرايه ، وتتحدث بذلك في شتى الأمساق ، حتى قال فيه الوليد بن عقبة :

إذا ما خرجنا من دمشق فلانند لما أبدأ ما دام فيها الجراضم
وأهل اللثة يقولون الجراضم هو الواسع البطن الكثير الأكل
ثم نثنى بهشام بن عبد الملك فندجل له مهارته النادرة في هذا
المضمار ، فقد خرج للتنزه ذات يوم فرأى راهباً يتحنث في
بستان له ، فدخل عليه فأخذ الراهب يجمع له من الفاكهة
ما يقدم عادة للملوك والخلفاء ، وهشام يأنى على ما يبجته غير
مقتصد في نهمه ، ثم قال له : أتبني هذا البستان ؟ فسكت الراهب
ولم يجيب ، فقال له : مالك لا تجيبني ؟ فقال وددت لو مات الناس
جميعاً غيرك ، قال : لماذا ويمك ؟ فقال الراهب : عسى أن تشبع
أما الوليد بن يزيد فلم يكتب بالبطولة في ميدان الطعام بل
ضم إليها بطولة أخرى في ميدان الشراب ، قال ابن أبي الزناد
كنت عند الوليد ذات مساء فدعا بالمشاء فتمشينا ثم جاءت
المثرب فصلينا ، وجلس ثم قال استقنى ، فجاءوا بإناء مغطى وجرى
بثلاث جوار فصفقن بيني وبينه حتى شرب ودهش . فتحدثنا
واستقنى ، ثم ما زال كذلك حتى طلع الفجر ، فأحصيت له
سبعين قدحاً من الشراب !!

وقد يظن كثير من القراء أن هذه الأخبار ملفقة مصنوعة
قد أنصقت بأصحابها إصافاً لما يرون من غرابتها العجيبة ، وأنا
لا أرتاب في صحتها لحظة واحدة ، لأننا نشاهد في عصرنا الذي
نعيش فيه من يزيدون شراهة ونهماً عن ذكرنا من الخلفاء ،
ففسدك « فقهاء »^(١) الريف يجلسون على الموائد المتعددة في

(١) فقه الترية : هو مقرئها الذي يحفظ القرآن .

ساعة واحدة دون ملالة أو سأم ، وكأنهم يرحمون الخدم فينسلون
الأطباق غداً لا يحتاج معه إلى تنظيف وتجفيف . ورحم الله
الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري فقد ذكر في الجزء الثاني من
المختار ما رآه بينه من الجشع والشراهة دون أن يخبره به مخبر ،
وهو عندما صدوق مصدق . ولم لا أعلن القراء أني شاهدت نهما
بأكل من سفظ مملوء بالخبز اللين واللين — وكنا نركب القطار
من المنصورة إلى الزقازيق — فإكدنا تقطع الطريق حتى كان
صاحبنا قد ترك الرعاء خالياً مما فيه ، وكان يستعين على أداء رسالته
الجسيمة بالشراب المتاج بين الفينة والفينة حتى وفق في مهمته
أكبر توفيق !! فهل نشك بمد ذلك فيما ترويه الكتب من أبناء؟
أما الطامة الكبرى فهو سليمان بن عبد الملك فقد فاق من
تقدمه في مضماره ، وتحدث الناس بنهمه كما يتحدثون عن معجزة
خارقة أخذت بمجامع الألباب ، وهم روون له قصة عجيبة نسماها
فتدعنا في حيرة منها ومنه ، وما ظنك بمن يأكل في مجلس واحد
جدياً مشوياً وخمس دجاجات وقصعة كبيرة من التريد ثم يقدم
ليشككي الموع !! ولقد كان جسمه هذا سبب موته ببطيته ...
قال أبو الحسن الدائني أقبل نصراني إلى سليمان بن عبد الملك
وهو يدايق بلسنين ، إحداهما مملوءة بيضاً والأخرى مملوءة تيناً ،
فقال قشروا ، فجعل يأكل بيضة بيضة ، وتينة تينة ، حتى فرغ من
السلتين . ثم أتوه بقصعة مملوءة غداً بسكر فأكله فأغتمه ، فرض
ومات صريع الطعام !!

ونرجع على خلفاء العصر العباسي وأمرائه فنذكر أنهم
ضربوا في هذا الباب بأوفر سهم ، ويكفي أن نلن أن الوائق
والمتوكل والمتمتع والمنتصر والتمند لم يكن بينهم من أمور
الدولة ومشاعلها غير الطعام والشراب . وكانوا إذا فرغوا من
الموائد انتقلوا إلى الحديث عنها مع من يلوذ بهم من الأسماء
والدهار ، حتى ليجوز لنا أن نسمي هذا العصر عصر الموائد
والولائم — كما يقول الأستاذ المقاد — وهل رأيت قبل المتوكل
على الله خليفة غضب على سميره ونفاه من مجلسه لأنه لا يتفنن في
الطعام ؟ وهل رأيت أسفاراً ضخمة كتبت في هذا الموضوع بذاته
في غير زمان بني العباس ؟ فقد ظهرت ثلاثة كتب في فن الطبخ
وحده ومنها أحمد بن يوسف الكاتب ، وجعظة البرمكي ،
وإبراهيم بن العباس الصولي ، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح
قدرة وعلماً وظرفاً ، وكأنه في ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى

الفعاة أو الشراة ، بل هما ركب في النفس يوم أن ذراها الله
والأفلى قصة صهيبة تدل على ذكاء لماع ونضوج فذ ، وما أظنها
تدع للقارىء شكا في صحة ما أقول :

استضاف أعرابي صديقه وكان نهما أكولا ، فقدم إليه
فلا من الأوز ، وكانت الأسرة جيمها ناكل ممة ، فأخذ الضيف
الراس وأعطاهما لصاحبه ، والمعجز فأعطاه لاصرائه ، والجناحين
فأعطاهما لابنيه ، والساقين فأعطاهما لابنتيه ، ثم هجم على الباقي فما
ترك منه شيئا !! وحين اختلى الرجل بزوجه صمم على أن يكثر
من اللحم ما دام الضيف على هذا الجانب من الشراة . فأحضر
على المائدة في المرة الثانية خمس دجاجات ، وانبرى الضيف للقمة
فقال أقسم بالشفع أم بالوتر ؟ فقيل له بالوتر ، فأعطى الرجل
وامرائه دجاجة وقال ثلاثة ثلاثة (١) وأعطى الولدين دجاجة وقال
ثلاثة ثلاثة ، وأعطى البنين دجاجة وقال ثلاث ثلاث ، ثم أشار إلى
نفسه وأخذ دجاجتين وقال ثلاثة ثلاثة !! وهنا ساحت المرأة :
زيد القصة بالشفع ، فأعطى الرجل وابنيه دجاجة وقال أربعة أربعة ،
وأعطى المرأة وابنتها دجاجة وقال أربع أربع ، ثم أشار إلى نفسه
وأخذ ثلاث دجاجات قائلا أربعة أربعة !! فأكل الجميع في وجوم
ثم انصرف الضيف بعد ذلك مشهودا له بالبراعة والتوفيق !!

(البقية في العدد القادم) محمد رجب البيومي

(١) أى أن الرجل وامرائه اثنان والدجاجة الثالثة... وهكذا .

اللماة ، وربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ، ومع
كل منهم طعامه يتفكرون باستمرار ألوانه والمقابلة بين
صناعاته وطومه (١) .

وتسألنى لماذا أولع المؤلفون بتسجيل نهم الأمويين ومنهمهم
دون العباسيين مع أن بنى أمية لم يبلنوا شأوم في هذا المضمار ؟
والجواب أن خلفاء العصر الأموى مبتدعون مخترعون ،
لحقت عليهم اللامة والمذمة دون من رسموا خطواتهم ، لاسيما
وقد حكموا الناس بعد الخلفاء الراشدين مباشرة ، وهم كما نلم أهل
تقشف وورع فكانت عورتهم واضحة ، وسبتهم بلقاء ، وليت
شعري ابن الأرض من السماء ؟!

هذا ولن يتمجب أحد من مائة سليمان بن عبد الملك بسبب
بطنه ، فكثير من الأكلين يرون من الفخر أن تحين آجالهم في
مركبة حامية تستخدم فيها الأنياب والأضراس ، وتدور رحي
الخصم والضغ ، وهما تكون الشهادة في ذمة الشره والنهم ،
وإن قائلهم ليصبح :

الآليت لى خبزاً تسربل رائباً وخيلا من البرنى فرسانها الزبد
فأقضى قبا بينهن شهادة بموت كريم لا يعد له لحد !!
وخيال هذين البيتين بطيك فكرة حميدة عن النضوج الذهني
لمقلية قائلها ، ونحبرك أن بين المهومين من سقته الطعام ، وتقفه
الشراب فأنى في شمره بالتركيب المتسق والمعنى البارح ، والمقل
السلم في الجسم السلم !!

وأنت لو نظرت إلى أجوبتهم المسكتة ، وردودهم المقعنة
لملت أن وراء هذه البطون المكتظة عقولا فذة مفكرة تتقدم
مناظرها وتستحوذ على الإكبار والإعجاب ، ودونك فاستمع
هذه النادرة :

كان للمضيرة بن عبد الله الثقفي وهو على الكوفة جدى يوضع
على مائدة فلا يأكل منه ، فتقدم أعرابي وتمرق عظامه ،
فقال : يا هذا أنطالب هذا اليانس بزعل ؟ هل نطحتك أمه ؟
فأجابه على البديهة ؟ وأنت شفيق جداً عليه هل أرضعتك أمه ؟
وهذا الجواب من الابداع بمكان وهو ينفى تهمة البلادة التي
تلتصق بهذه اللطافة الصاقا ، مع أن الذكاء والنباه لا يأتيان من

(١) ابن الرومي للاستيلاء العناد

ظهر صريحا :

الطبعة الجريرة المزيرة من كتاب

في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة ونعمه ٢٥ قرشا